فـقه الاستشراق في السيرة النبوية

الأستاذ عبد الله محمد الأمين النعيم*

مدخل :

لكل أمة من الأمم قدوتها وأسوتها التي تقتدي بها في حركتها التاريخية وغالباً ما تكون هذه القدوة نبياً أو بطلاً قومياً فإذا أريد تحطيم الأمة وإذلالها فلا بد أن تتجه معاول الهدم إلى هذه القدوة أو المثل الأعلى لتعمل على تحطيمها حتى إذا ما تهاوت القدوة أمكن تقديم البديل الذي يفرضه العدو . وأمة الإسلام قدوتها ومثلها الأعلى هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي اتجهت إليه المطاعن حياً وميتاً وكل هذه المطاعن هدفها سلب صفة النبوة عنه وإذا تم سلب صفة النبوة عنه تهاوي جميع البنيان المسمى بالإسلام وما يفرزه هذا الإسلام من بناء اجتماعي وحضاري.

لقد تخصص قوم من الغربيين في السيرة النبوية وكتبوا فيها كتباً بعقول كيفها النموذج المعرفي الغربي الذي يتصادم مع النموذج المعرفي الإسلامي وسيتضح ذلك من خلال عرضنا لمؤلفات وليم وات وكارل بروكلمان وهما من المعروفين بالحياد والاعتدال وهذا ما يشاع عنهما وذلك ليجدا التقبل العلمي في المؤسسات العلمية في العالم الإسلامي.

في هذا البحث أحاول تسليط الضوء على بعض الدراسات الاستشراقية في مجال السيرة النبوية ، لا بقصد الترويج للدراسات الاستشراقية وإنما بقصد تنوير المسلمين بأخطار هذه الدراسات ، وهي أخطار عديدة هدفها النهائي تدمير الإسلام من خلال تشكيل العقول في الشرق والغرب على حد سواء .

وسوف يكون تسليطنا للضوء لا على الخطاب الاستشراقي في عصور أوربا المظلمة حينما كان الخطاب تعبيراً عن موقف أيديولوجي مترع بالكهنوتية المسيحية الفجة التي أغلقت منافذ التفكير واتخذت من الإسلام عدواً لدوداً إذ أن ذلك سيجعلنا نكتب عن اللاعلم واللاموضوعية وإنما نسلط الضوء هنا على المستشرقين المعاصرين الذين يوصفون بالاعتدال والموضوعية والحياد أمثال وات وبروكلمان من خلال كتبهم في مجال السيرة النبوية ومن العسير جداً دراسة هذا الخطاب الاستشراقي دراسة فاحصة في بحث صغير لذلك سوف اكتفي بتقديم خلاصة لآرائهم المهمة والتي أحسبها ذات خطورة علمية دون تقديم الردود عليهم إذ أفردت لذلك دراسة علمية وأما خطتنا في كتابة هذا البحث فهي أن نتحدث أولاً عن مصطلح الاستشراق وأهدافه بصورة عامة ثم نتحدث عن منهجه في كتابة السيرة ثم بعد ذلك نتحدث عن مضامين الخطاب الاستشراقي في مجال السيرة النبوية.

أولاً: في فقه المصطلح وأهدافه

(1) مصطلح الاستشراق :

إن مفهوم الاستشراق "Orientalism " يعني " معرفة الشرق ودراسته " (1) غير أن البعض يشير إلى أن هذا المصطلح الجغرافي والفلكي قاصر عن إعطاء معنى حقيقياً لمفهوم الاستشراق " إذ أن لكلمة (الشرق) مدلول معنوي إذ أن البحث اللغوي الأصلي لكلمة (Orient) في اللغات الأوربية الثلاث المستمد من الأصل اللاتيني يوضح في أن معناها يتمركز حول طلب العلم والمعرفة والإرشاد والتوجيه.

---

* المحاضر بمعهد إسلام المعرفة

فاستخدام كلمة بهذه الدلالة اسمً لعلوم تبحث في منطقة معينة تعني اعترافاً بأن العلم والمعرفة والإرشاد كان يطلب من هذه المنطقة، وأن وصفها بالشرق يعني في المقام الأول أنها المنطقة التي أشرقت فيها شمس المعرفة وليست الشمس بمعناها الحسي المعروف. وارتباط الشرق والشروق بالعلم نجده كذلك في مصطلحاتنا العلمية فيما عرف عند المتصوفة بالإشراق الذي تأسست عليه نظريتهم في المعرفة، فهي معرفة إشراقية تفيض على الإنسان من مصدرها الإلهي. غير أن مصطلح الاستشراق لا يرجع إلى المتصوفة أو المعرفة الإشراقية في أصله اللغوي لأنه في استخدامه المعاصر لا يحمل هذا المعنى الروحاني، بل يدل على علم جاف يشمل إلى جانب معرفة تاريخ وأحوال المتصوفة في الشرق كل عناصر الثقافة الشرقية من علوم وتاريخ وعقيدة وفكر " (2) وهذا يعني أن مصطلح " الاستشراق " ليس مستمداً من المدلول الجهوي بل من المدلول المعنوي لشروق الشمس التي هي مصدر العلم، وأن صفة مستشرق ينبغي أن تقتصر على من ليس شرقياً لأنها تصف حالة طلب لشيء غير متوفر في البيئة التي نشأ فيها الطالب.

ولقد عرف البعض الاستشراق بأنه " ذلك التيار الفكري الذي تمثل في الدراسات المختلفة عن الشرق الإسلامي والتي شملت حضارته وأديانه وآدابه ولغته وثقافته. ولقد أسهم هذا التيار في صياغة التصورات الغربية عن العالم الإسلامي معبراً عن الخلفية الفكرية للصراع بينهما " (3). ومن الصعوبة بمكان وضع حد فاصل وواضح بين الاستشراق والتبشير والاستعمار " إذ أن الاستشراق يمثل الوليد الطبيعي للثقافة التي تنتجه، فالمفكر إلى حد بعيد رهين للثقافة التي ينشأ فيها وليس وليداً للموضوع المدروس أو المطروح باعتباره صاحب الحق الأول في الاهتمام والدراسة. لذلك لا يستطيع أي مستشرق أن يتناول موضوعاته دون أن يخضع للقوالب والحدود الفكرية والعلمية المفروضة عليه مسبقاً بسبب من ثقافته التي يصعب عليه الانفلات منها " (4).

أما عن بدايات الاستشراق فمن الصعب تحديد فترة زمنية معينة إذ أن البعض يعود به إلى أيام الدولة الإسلامية في الأندلس. في حين يعود به آخرون إلى أيام الصليبيين. ولكن " من المتفق عليه أن الاستشراق اللاهوتي الرسمي قد بدأ وجوده حين صدور قرار مجمع فينا الكنسي سنة 1312م وذلك بإنشاء عدد من كراسي اللغة العربية في عدد من الجامعات الأوربية"(5).

ويبدو أن الاستشراق قد قام في البداية على جهود فردية لم تكن ذات تأثير على مجري التفكير الغربي، مما أدى إلى عدم اتخاذها نقطة بداية للاستشراق لدى بعض الباحثين.

ومن ثم فإن اعتبار الحروب الصليبية - التي بدأت التعبئة لها في مجمع كليرمونت سنة 1095 على عهد البابا أوربان الثاني " 1088 - 1099م " - هي البداية الحقيقية للاستشراق ترجع في الأساس إلى أن الاستشراق قد تبلور كتيار فكري عام، إذ أن الاحتكاك بالمسلمين يفرض على العالم الغربي المسيحي التعرف على العالم الإسلامي ودراسته. ولعل طبيعة المرحلة الصليبية بكل ما لها من ذيول في عقول الأوربيين قد أدت إلى إفراز بنية عدائية المنهج في تعاملها مع الإسلام جرد المستشرقين من الموضوعية والأمانة العلمية وبحيث استمرت هذه الدراسات تغذي الأجيال اللاحقة من المستشرقين.

إذا كان الاستشراق قد نشأ في أحضان الكنيسة إلا أنه قد عايش التطورات والتحولات التي شهدتها الساحة الغربية، إذ أن حركته " كانت تسير جنباً إلى جنب مع التحولات والتغيرات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي سادت العصور التي عاش فيها أولئك المستشرقين فلا يمكن - إذاً - أن نفصل بين ما شهدته من ظروف سياسية واجتماعية واقتصادية وبين ما أنتجه أولئك المستشرقون من دراسات " (6)

وبمعني آخر فإن فهم الإسلام حسب ما قدمته الدراسات الاستشراقية يدخل في علاقة مع تجارب الاستشراق الخاصة بحيث لا يمكن فصل طرحهم بمعزل عن واقعهم الاجتماعي الذي أثر فيهم. كما أن الاستشراق بتبعيته للمؤثرات الخارجية يفقد الصفة العلمية التي يدعيها، ويجعل منه مجرد أداة في أيدي الدول الغربية إذ أنه يكشف - حينها - عن عقلية الغرب أكثر مما يكشف عن الموضوع المدروس.

(2) أهداف الاستشراق ووسائله :

إن أهداف الاستشراق متعددة ومتداخلة غير أن أهم هذه الأهداف تتمثل في:-

(1) الأهداف الدينية :

لقد برز الاستشراق منذ البداية بقصد إيقاف التأثير الإسلامي في العالم الغربي، ثم تطور ليخدم مشروع تنصير المسلمين. ولقد كان هدف الاستشراق منذ نشأته خدمة الكنيسة والاستعمار " وتعاونت الكنيسة مع ملوك أوربا على شد أزر المستشرقين والتمكين لهم في مهمتهم التي كان نصفها الأول سياسي ونصفها الآخر تبشيري تعصبي " (7).وحسب ما يرى بعض الباحثين فإن " الاستشراق قد بدأ بنشاط الرهبان في مجال الترجمة حيث توجهت البعثات العلمية المسيحية إلى الأندلس. وكان ضمن باباوات الكنيسة من تعلم في الأندلس " جربر دي أرلياك (Gerber DE Araliac) 938 - 1003م الذي تولي منصب البابوية في الفترة من 999 - 1003م باسم سلفستر الثاني " (8). ولقد قام بطرس المحترم 1094م - 1156م " بتشكيل جماعة من المترجمين للحصول على معرفة موضوعية عن الإسلام كما أنه أوعز بترجمة القرآن إلى اللاتينية " (9).

فقد كان لا بد من معرفة الإسلام معرفة جيدة لمحاربته محاربة جيدة على مستوي العقيدة، وانكب المفسرون المسيحيون على ترجمة القرآن ودراسته من أجل نقده وهذا النقاش اللاهوتي لم يكن دائماً صادراً عن حسن نية وهو وإن ساهم في التعريف بالإسلام إلا أنه لم يساهم في إيجاد تفاهم أفضل (10).

ولقد امتد النفوذ الكنسي على الاستشراق حتى وصل إلى المعاهد العلمية فمثلا قرار إنشاء كرسي اللغة العربية في جامعة كمبردج سنة 1636 ، نص صراحة على خدمة هدفين أحدهما تجاري والآخر تنصيري " .. ونحن ندرك أننا لا نهدف من هذا العمل إلى الاقتراب من الأدب الجيد بتعريض جانب كبير من المعرفة للنور بدلاً من احتباسه في نطاق هذه اللغة التي نسعى لتعلمها ولكننا نهدف أيضاً إلى تقديم خدمة نافعة للملك والدولة عن طريق تجارتنا مع الأقطار الشرقية وإلي تمجيد الله بتوسيع حدود الكنيسة والدعوة إلى الديانة المسيحية بين هؤلاء الذين يعيشون في ظلمات " (11).

ونتيجة لهذا التأثير الكنسي على الباحثين المستشرقين فإن دوافعهم تظل غير بريئة إذ لم تكن مقاصدها الدخول في حوار مع الإسلام أو محاولة استيعاب تعاليمه بقدر ما كانت غاياتها تقديم صورة كريهة ومشوهة تمكن الكنيسة من الاحتفاظ برعاياها " والحيلولة دون دخولهم في الإسلام " (12).

ولقد كانت الكنيسة ذاتها تشعر بمرارة حقيقية تجاه المد الإسلامي الذي لم يتوقف إلا عند بلاط الشهداء بين بور وبواتييه سنة 732م (13). وسرعان ما وصل المسلمون الأتراك إلى القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية واستولوا عليها سنة 1453م وما أفرزه ذلك من ظهور لعصر النهضة الأوربية (14) التي كانت هي الأخرى معول هدم في بنية الكنيسة والتفكير اللاهوتي. لذلك لا يبدو غريباً أن تشن الكنيسة على الإسلام حرباً انتقامية فعلي الجانب العسكري كانت الحروب الصليبية وحملات الاسترداد المسيحي في أسبانيا والتي انتهت بطرد السلطان أبي عبد الله محمد بن أبي الحسن آخر حكام بني نصر من قشتالة في الثاني من يناير سنة 1492م (15). وأما على الجانب الفكري فقد اتخذت الكنيسة من الاستشراق أداة للطعن في الإسلام (16) فجاءت المحصلة النهائية للاستشراق وليدة كراهية شديدة للإسلام (17).

لقد ظلت الكنيسة تتحكم في تشكيل العقلية الغربية إلى ما بعد عصر التنوير. ولم يقتصر دورها على توجيه الرأي العام الغربي من خلال تشكيله وفق رؤية معينة بل امتد نفوذها إلى البلاد الإسلامية ذاتها عبر بوابة الاستشراق الموجه سلفاً " فأنشئت مؤسسات في البلاد العربية لخدمة الاستشراق ظاهرياً لكن هدفها في الحقيقة خدمة الاستعمار والتبشير الكاثوليكي والبروتستانتي فمثلاً في مصر المعهد الشرقي بدير الدومينكان والمعهد الفرنسي والجامعة الأمريكية. وفي لبنان جامعة القديس يوسف والجامعة الأمريكية " (18). يضاف إلى ذلك إشكالية ابتعاث الطلاب المسلمين إلى معاقل المستشرقين في جامعات الغرب وما تحدثه من انشطار وازدواجية في بنية العقل المسلم أدت إلى إنجاح مخططات الاستشراق في خلق النموذج الثقافي في المجتمعات الإسلامية.

إن مراجعة قائمة أسماء أعلام المستشرقين تجعل من السهل إدراك الرؤية الكنسية للاستشراق وأهمية الدافع الديني له. إذ أن هؤلاء الأعلام هم في الأساس من آباء الكنيسة وتلامذتهم، فأدي هذا إلى أن تظل الرؤية الاستشراقية ثابتة من حيث (الكيف) رغم تطورها من حيث (الكم). وعلي الرغم من أن الاستشراق قد بدأ يتخفف في القرن الثامن عشر الميلادي من ضغط الكنيسة إلا أن صورة الإسلام المشوهة بفعل الاستشراق اللاهوتي لم تتغير في أذهان الغربيين حتى الآن. وإذا كان الهدف الديني لم يعد ظاهراً الآن في الكتابات الاستشراقية فليس معنى ذلك أنه قد اختفى تماماً " إنه لا يزال يعمل من وراء ستار بوعي أو بغير وعي فمن الصعب على معظم المستشرقين النصارى المشتغلين بدراسة الإسلام وأكثرهم متدينون أن ينسوا أنهم يدرسون ديناً ينكر عقائد أساسية في النصرانية ويهاجمها ويفندها مثل عقيدة التثليث وعقيدة الصلب والفداء. كما أنه من الصعب عليهم أن ينسوا أن الدين الإسلامي قد قضي على النصرانية في كثير من بلاد الشرق وحل محلها " (19) لذلك فإن فهم الاستشراق لا يتم إلا من خلال فهم جذوره الكنسية وبيئة المستشرق - التي هي في الأساس مسيحية - وإسقاطاتها على وعيه.

(2 - 2) الأهداف السياسية والاستعمارية :

لقد استفاد الاستعمار كثيراً من التراث الاستشراقي. كما أن الاستعمار عمل على تعزيز موقف الاستشراق " وتواكبت مرحلة التقدم الضخم في مؤسسات الاستشراق وفي مضمونه مع مرحلة التوسع الأوربي (20)، وقد استطاع الاستعمار أن يجند طائفة كبيرة من المستشرقين * لخدمة أغراضه وتحقيق أهدافه وتمكين سلطانه في البلدان المستعمرة . وهكذا نشأت رابطة وثيقة بين الاستشراق والاستعمار . ولقد عمل بعض المستشرقين كمستشارين لوزارات خارجية دولهم وكقناصل وتجسسوا على المسلمين (21). ولقد كانت هناك علاقة وثيقة بين رجال السياسة والمستشرقين " إذ كان رجال السياسة يرجعون إليهم قبل اتخاذ قراراتهم الهامة في الشؤون السياسية الخاصة بالأمم العربية الإسلامية. وكان بعض المستشرقين يؤسس صداقة بالبارزين من رجال الأمة العربية ويتخذ من هذه الصلات ستاراً يقوم من ورائه بأعمال التجسس في أثناء الحرب " (22). ومهما يكن من أمر فقد كان التراث الاستشراقي بمثابة الدليل للاستعمار لفرض سيطرته على الشرق وكانت المعرفة بالأجناس المحكومة أو الشرقيين هي التي تجعل حكمهم سهلاً ومجدياً إذ أن المعرفة تمنح القوة والمزيد من القوة يتطلب مزيداً من المعرفة فهناك باستمرار حركة جدلية بين المعلومات والسيطرة المتنامية"(23).

ويذهب بعض الباحثين إلى أن أوربا تكتشف الفكر الإسلامي في المرحلة العصرية الاستعمارية مرة أخرى لا من أجل تعديل ثقافي بل من أجل تعديل سياسي لوضع خططها السياسية مطابقة لما تقتضيه الأوضاع في البلاد الإسلامية من ناحية ولتسيير هذه الأوضاع وفق ما تقتضيه السياسات في البلاد الإسلامية لتسيطر على الشعوب الخاضعة لسلطانها "(24).

ولعل واقع الممارسات الاستشراقية في العالم الإسلامي يوضح إلى حد بعيد ضلوع الاستشراق في خدمة المخططات الاستعمارية إذ عمل الاستشراق على إحياء النزاعات العصبية. وعمل على إثارة الخلافات المذهبية والفقهية وتضخيمها لأجل إثارة الفتن بين المسلمين. كما أن الاستشراق درس التاريخ العام للأمة الإسلامية وركز على الجوانب القاتمة فيه وأولى اهتماماً خاصاً لتاريخ الحركات الباطنية، وكل ذلك يخدم المخططات الاستعمارية وبحيث يؤدي في خاتمة المطاف إلى إضعاف العالم الإسلامي وتكبيله بقيود التبعية للعالم الغربي. ذلك لأن الخطاب الاستشراقي لم يكن أميناً في عرضه للتراث الإسلامي مما أدي إلى أن يشوه الاستشراق من نفسه ومن تاريخه كما شوه إنجازاته وشوه الشخصية المسلمة أمام نفسها وأمام العالم الغربي فما استطاع الغرب أن يفهمها حين تعامل معها. وما استطاعت أن تعرف نفسها للغرب إذ سبقها الاستشراق وأغرى بها الاستعمار وقدم الشرق لقمة سائغة لمستعمر قاهر جموح. فلم يكن ذات يوم سلاح دعم ودفاع للشعوب ضد الاستعمار فلذلك كانت رسالته وسوف تكون لو عاد التاريخ سيرته الأولى (25). فمن الصعب - إذاً - وقد كان الاستشراق مرتبطاً بالاستعمار والتبشير أن يقيم الاستشراق علاقات اعتراف متبادل بين العالم الإسلامي والغرب " هذا المدهش في معارفنا يجعلنا نتساءل : كيف يمكن لأطراف تجهل بعضها بعضاً أن تعترف اعترافاً تكافؤياً ديمقراطياً دولياً من جهة، كيف يمكن لها بدون اعتراف تام بوجودها الإنساني المتناسق والمتكافئ أن تتعرف إلى بعضها البعض تعرفاً مختبرياً كالذي أوصلنا إليه المختبر الاستشراقي ثم المختبر السياسي - الاستعماري - بكل تبعاته الاقتصادية والعسكرية وأنظمة الغزو " (26).

وقد يكون من الأنسب أن نسوق شهادتين تدلان على وثوق الصلة بين الاستعمار وقطاعات من المستشرقين وهما - وهذا ما يزيد من قيمتهما _ لمستشرقين، واحد من القرن الماضي، جوستاف دوجا، يؤيد تلك الصلة ويشجع عليها، والثاني معاصر لنا، جاك بيرك يصفها منتقداً إياها ضمنياً.

تقول الأولى : " إن المستشرقين مناط بهم مهمة جديدة إذ عليهم وهم يجوبون فلك العلم الخالص أن يهتموا بالعالم الحاضر في الوقت الذي تكتسح فيه أوربا كل المناطق الشقية ويقوم أمر تكوين عاملين حضاريين، وتلقينهم العلوم الآسيوية قصد غاية سياسية وتجارية ... وعلي الحكومات الواعية بمصالحها الحقيقية أن تعرف كيف تشجع وتستخدم رجال العلم والإخلاص أولئك فالأمر يتعلق بإلحاق إضافات أخرى إلى محصول الحضارة المكتسبة وذلك باغتنام الإفادات التي من شأن الشعوب الشرقية أن تعطينا إياها. كما يتعلق بإمداد هذه الشعوب بنصيبها من فتوحاتنا الفكرية والأخلاقية والمادية (27).

أما الشهادة الثانية فنقول : " إن الأمة الفرنسية تعمل وتجمع، فمن قناصلتها المغامرين إلى طوباوييها مخططي السكك الحديدية إلى مسافريها المنفعلين كلامرتين وباريس كانت تشيد في الشرق عملاً خلص إلى مقابلة العلمي شامبليون وساسي ورينان ومن حذا حذوهم. وفي هذه الفترة كان العرب يهملون ماضيهم الخاص ويتلعثمون بلغتهم النبيلة. إن الاستشراق المعاصر قد نشأ من هذا الثغور. فاستغلال وانبعاث كل هذه الثروات المعنوية كان من نصيب المسيحي الموسوعي، كما كان مسيحي البنك ينعش بتوازي المجالات الجرداء ويملأ المخازن، انظروا مثلاً إلى القبيلة والنزعة البدوية فالاستشراق يتناولها لصالح ثلاث دفعات سياسية كبيرة مرحلة " مكتبنا العربي " في الجزائر إلى حوالي 1870 ، مرحلة التمرد في الصحراء " وانتصار العملاء البريطانيين في الشرق الأوسط ، وأخيراً " مرحلة التوسع النفطي المعاصر (28).

إن هاتين الشهادتين توضحان ضلوع الاستشراق في خدمة المخططات السياسية الاستعمارية الغربية ضد العالم الإسلامي. غير أن بعض الباحثين المسلمين يرى أن من قصر النظر والفهم اعتبار الاستشراق مرتبطاً بالاستعمار والتبشير .. إنك لا تكاد تجد بحثاً عن الاستشراق لا يرجع الاستشراق إلى الاستعمار والتنصير والمكر والصراع وما شابه ذلك من

كلمات تخرجه عن المنهج العلمي الذي يدعيه المؤلف ويرجوه القارئ ، قبل ظهور الإسلام أو كأن الاستشراق لا عمل له ولا هدف سوى الكيد للإسلام فترادف في مفهومنا مصطلح الاستشراق مع الكفر والعداء والصهيونية والماسونية. وهذا الفهم القاصر للاستشراق سهل لنا تعليق كل أسباب انحطاطنا وتخلفنا على هذا المشجب متعدد الألوان ، وحدد لنا مسبقاً أساليب بحثنا فيه التي أبعدت كثيراً من الأبحاث عن الموضوعية العلمية .. إن من ينكر علاقة الاستشراق بكل ما ينسب إليه في كتاباتنا، الاستعمار والتنصير في مقدمتها يرتكب خطأ لاشك فيه، ولكن من يقصر الاستشراق على كونه مساعداً للاستعمار والتنصير لا يقل خطأه عن الأول. فالاستشراق وإن كان قد نشأ بالفعل في أحضان الكنيسة وكان الكيد للإسلام أهم أهدافه إلا أن هذه النشأة الأولى قد فقدت كثيراً من تأثيرها على تطور هذا العلم حتى أنه قد وصل هذا التأثير إلى مرحلة في غاية الضآلة " (29).

ومهما يكن من أمر فلا يمكن إنكار تأثير البيئة والمحيط الثقافي على المستشرقين. وهذه البيئة وذلك المحيط الثقافي تتسم بالعداء للإسلام فلا يستطيع المستشرق - مهما بذل من حيادية وموضوعية - أن يجد فكاكاً أو تحولاً عن ما ورثه عن آبائه فكل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه.

(3 - 2) أهداف ثانوية :

إن هناك أهدافاً أخرى للاستشراق ولكنها بالقياس للأهداف السابقة فإنها تعتبر أهدافاً ثانوية.

ومن ضمن هذه الأهداف ، الهدف العلمي الذي دفع ببعض المستشرقين لدراسة الإسلام وحضارته بروح علمية متجردة أو محايدة " مثل دراسات توماس أرنولد وغوستاف لوبون وجاك بيرك وكارلايل واتيين دينيه (30) ولكن هذه الدراسات العلمية تعتبر ضئيلة التأثير بالقياس إلى سيل الدراسات الاستشراقية التي بلغت في الفترة من 1811 - 1950م " ستين ألف كتاب تعني بالشرق العربي وحده (31) كما أن الكنيسة منعت تداول الكتب التي أظهرت عطفاً على الإسلام ووضعتها في قائمة المحرمات وبطشت بمؤلفيها (32). ونجد أسباباً اقتصادية تمثلت في " إيجاد الأسواق التجارية في الشرق (33).

3 - وسائل الاستشراق :

وكانت وسائل المستشرقين لتحقيق أهدافهم تتمثل في :-

أولاً : اكتساب عضوية مجامع اللغة العربية.

ثانياً : إصدار المجلات المتخصصة.

ثالثاً : إلقاء المحاضرات.

رابعاً : نشر المقالات في الصحف والمجلات العربية.

خامساً : إصدار الموسوعات الإسلامية بعدة لغات.

سادساً : تطبيع الفكر الاستشراقي أو " شرقنة الشرق " (34) وذلك من خلال إيجاد كوادر محلية تتبنى الأطروحات الاستشراقية حيث يتم تعليم هذه الكوادر على أيدي المستشرقين في الجامعات المحلية أو أقسام الدراسات الإسلامية والعربية في الجامعات الغربية. غير أن البعض يرى أن هذه الوسائل ساهمت مساهمة إيجابية في الدراسات العربية الإسلامية لأنها عنيت بدراسة الحضارات القديمة وتجميع المخطوطات العربية في المكتبات الأوربية، وإنشاء قوائم بالمخطوطات ، ونشر مؤلفات عديدة ومهمة ، وإلقاء دروس منهجية على العلماء الشرقيين وتنظيم بعض مؤتمرات الاستشراق. فمجالات الاستشراق هذه قد ساهمت في تنبيه الوعي القومي في مختلف بلدان الشرق وفي تنشيط حركة النهضة العلمية واليقظة

الفكرية ذلك من جهة، غير أنه من جهة أخرى فإن هذا العمل نفسه كان مشبعاً إلى حد بعيد بالمسلمات وبالعادات المنهجية وبالمفاهيم التاريخية الفلسفية التي أحبطت في كثير من الأحيان نتائج الأعمال الدؤوبة (35).

فقه المنهج

سأحاول في هذا الفصل إعطاء الخطوط العريضة للمنهجية التي أتبعها وات وبروكلمان في كتابة السيرة دون إيراد نماذج إذ أن محل ذلك هو الفصل التالي.

إن من المعلوم لدينا - نحن المسلمين - بالبداهة أنه لا يمكن اعتبار السيرة النبوية مسألة تاريخية صرفة تخضع لأساليب النقد والتحليل التي تعامل بها المراحل التاريخية المختلفة ذلك لأن أحداث السيرة نسيج متشابك بين عالم الغيب والشهادة والوحي فيها همزة وصل مباشرة بين الله سبحانه ورسوله (ص) فأحداثها - إذاً- تند عن مملكة العقل وتستعصي على التحليل المنطقي الاعتيادي المألوف ومن ثم فإن محاولة قسرها على الخضوع لمقولات العقل الصرف ومعطيات المنطق المتوارثة لا يمكن أن يقود إلا لنتائج خاطئة .. إن الدين والغيب والروح لهي عصب السيرة وسداها ولحمتها وليس بمقدور الحس أو العقل أن يدلي بكلمة فيها إلا بمقدار) (36).

إن الاستشراق باعتباره وليد نسق معرفي معين له رؤيته الخاصة لعالم الغيب والشهادة وإجابته الخاصة بالأسئلة الكلية عن الخالق والكون والمصير استخدم منهجية هي وليدة هذا النسق المعرفي المتعارض مع النسق الإسلامي فجاءت النتيجة أو مضمون الفهم الاستشراقي للسيرة النبوية خاطئة لأن منهجية البحث قامت على أسس خاطئة فالخطأ لا ينشأ عنه إلا الخطأ ... وتتلخص هذه المنهجية في كتابة السيرة في الآتي:

أ. منهج العكس: حيث يأتي المستشرق بأوثق الأخبار وأصدق الأنباء فيقبلها متعمداً إلى عكسها (37).

ب. منهج الأثر والتأثر: وهو منهج أتبعه غالبية المستشرقين حيث تمّ إفراغ الإسلام من ذاتيته وذلك بإحالتها إلى مصادر خارجية هي اليهودية والنصرانية والبابلية والمجوسية حيث تم الاشتباه في الإسلام وتشريعاته ومدي تأثره بالأديان السابقة.

ج. المنهج العلماني : وهو منهج يستبعد وقوع ظواهر دينية لا تخضع لقوانين الأجسام المادية المعروفة (38).

د. المنهج المادي: وهو منهج يجعل للعامل الاقتصادي أهمية قصوى في تفسير الواقعة التاريخية ولقد استخدم وات وبروكلمان هذا المنهج بكثافة في تفسير انتشار الإسلام والغزوات.

هـ. منهج الإسقاط : وهو إسقاط الواقع المعاصر المعاش على وقائع السيرة النبوية دون وضع اعتبار لبيئة الحدث وزمانه فيغدو التحنث في غار حراء ليس لأجل العبادة وإنما هربا من حر مكة (39).

و. منهج النفي والافتراض والاستعانة بالضعيف والشاذ: حيث تعمد وات وبروكلمان من خلال هذه المنهجية نفي الوقائع الثابتة وافترضوا حينما لم تكن للافتراض قيمة وضرورة واستعانوا بالروايات الشاذة والضعيفة وتكفي واقعة الغرانيق (الآيات الشيطانية)(40) - التي جعلوها رواية صحيحة في الوقت الذي تجاهلتها المصادر الإسلامية الأصيلة - لإثبات هذه المنهجية.

ل. منهج البناء والهدم: حيث الإطراء والمديح ثم الهدم وهذا المنهج أوجد تناقضاً حاداً داخل دراسات وات.

ي. المنهج الفيلولوجي: حيث التركيز على الناحية اللغوية في دراسة الوقائع التاريخية.

هذه المناهج التي أعطينا خطوطها العريضة هي نفس المنهجية التي استخدمها وات وبروكلمان في دراسة وقائع السيرة وسيتضح لنا ذلك في الفصل التالي حينما ندرس فقه الخطاب الاستشراقي فذاك الخطاب هو وليد هذه المنهجية الخاطئة

.. ولعله من الأفضل- ومن قبيل تنبيه الغافلين - أن نذكر بأننا بعد دراستنا لمنهجية وات وبروكلمان أتضح لنا جلياً تشابه المناهج التي أتبعوها في دراسة السيرة ، وتشابه المسائل التي أثاروها ، وتشابه النتائج التي توصلوا إليها . وإن كان ثمة اختلاف فإنه اختلاف في الدرجة وليس في النوع.. لقد اتفقوا على إتباع نسقهم المعرفي الخاطئ الذي قادهم إلى نتائج خاطئة.

خلاصة القول في منهجية كتابة السيرة أنه لكي تفهم وقائع السيرة فهماً صحيحاً وبالتالي تصاغ وقائعها بما يتماشى مع نسيجها العام فإنه ينبغي احترام المصدر الغيبي لرسالة النبي (صلي الله عليه وسلم) وحقيقة الوحي واعتماد موقف موضوعي بغير حكم مسبق ، ومن نافلة القول فإننا نقول بأن رواة السيرة النبوية المسلمين قد دونوها وفق منهج علمي دقيق أرتكز على قواعد مصطلح الحديث وعلم الجرح والتعديل . كما أن فهم السيرة النبوية فهماً صحيحاً لا يكون إلا من خلال الهوية التي قدم بها النبي (ص) نفسه إلى العالم وهي نبوته ودون فهم هذا الأساس والمرتكز فإن الحديث في السيرة النبوية لا يكون إلا من قبيل العبث واللغو العلمي الباطل .

فقه الخطاب الاستشراقي

لقد بدأ الخطاب الاستشراقي في التكون - وهو بصدد دراسة السيرة النبوية- منذ احتكاك المسلمين بالمسيحيين في الأندلس . ولقد تطور هذا الخطاب عبر العصور غير أنه كان تطوراً في الشكل دون أن يكون تطوراً في مضمون فهمه. ولأن الإسلام كان العدو الأكبر "“The great enemy للمسيحية حسب ما صورته الكنيسة للغربيين فقد وصف النبي صلى الله عليه وسلم في العصور الوسطي بأنه ماهوند أمير الظلماتMahaound the Prince of darkness"" ولقد أتهم محمد بالخداع والشهوانية وعدم الوفاء

(41 Sensual, and to be treacherous”(be insincere to be Muhammed has been alleged to“

إذا كان النبي (ص) في العصور المظلمة لأوربا أميراً للظلمات وشهوانياً مخادعاً وعديم الوفاء فما هي الرؤية الاستشراقية المعاصرة لمجمل وقائع السيرة ؟ إن آراء وات وبروكلمان في دراسة السيرة تمثلان خلاصة الرؤية الغربية العلمية وتتلخص آراء هذين الباحثين في الآتي:

أولاً : في إطار المنهجية فقد استخدم وات وبروكلمان مناهج البحث الغربية المادية والعلمانية والقول بتدرج الأديان ومنهج النفي والافتراض والاعتماد على الضعيف الشاذ وغيرها من المناهج التي خضعت في نشأتها وتطورها لظروف زمانية ومكانية بما فيها من تفاعلات اجتماعية تتناقض وتتصادم مع وقائع السيرة النبوية . كما أن بعض هذه المناهج جاءت حرباً على الدين ذاته وبالتالي فإن استخدامها في تفسير وقائع السيرة التي تشكلت معطياتها من خلال عملية الوحي (البعد الغيبي) لا يعبر عن روح السيرة ولا عن توجهاتها ، بل إن استخدام هذه المناهج يحول دون فهم وقائع السيرة ذاتها . إذاً فإن أول مضامين الخطاب الاستشراقي تتمثل في استخدامه لمنهجية في ضوء بيئة مغايرة لبيئة الحدث وعلي ضوء رؤية مغايرة لرؤية الفاعل التاريخي وثقافته مما يحول بينه وبين تقديمه لدراسة علمية تتفهم ملابسات الواقعة التاريخية وكيفية تفسيرها .

وإن شئنا بلغة العصر فإننا نقول بأن لكل أمة من الأمم نموذجها المعرفي ونسقها الفكري ، هذا النموذج المعرفي لا يمكن أن يحاكم بمقولات نموذج معرفي مضاد له في تصوراته عن الخالق والحياة والمصير والغاية من خلق الإنسان أو ما يطلق عليه الأسئلة الكلية . فحركة السيرة النبوية من مبدأها إلى منتهاها غايتها تعبيد الناس لله سبحانه وتعالي وإخراج الإنسان الفاعل الذي تتحقق فيه آية " قل أن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين"

(الأنعام:162-163). أي أن النموذج المعرفي الذي دارت فيه حركة السيرة نموذج يربط الحياة الدنيا بالحياة الآخرة وعالم الغيب بعالم الشهادة بينما انطلقت دراسات المستشرقين من النموذج المعرفي الغربي وهو نموذج مغاير تمام المغايرة لهذا النموذج إذ من ابرز خصائص النموذج الغربي أنه دنيوي ينطلق من عالم الشهادة وحده ومن ثم فإن الغيب مغيّب في نطاق الدراسات الاستشراقية .

ثانياً : إن دراسات وات وبروكلمان لم تعترف بكل ما ذكرته المصادر الإسلامية عن وقائع السيرة النبوية في الفترة من ميلاده إلى حين زواجه من السيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها وهي فترة تناهز الخمسة وعشرين عاما ولها أهميتها ، بل إنها الأرضية التي تشكلت عليها مقدمات النبوة وإرهاصاتها . حيث يريان بأنه لا شئ صحيح سوى ما ورد في سورة الضحى (42) أي يتم (ص) وضلاله وفقره "سورة الضحى الآيات 6- 7 ". كما أن هذه الفترة ذات مضامين ودلالات في تشكيل العلاقة بين المسلمين والمسيحيين يتضح ذلك من مقولات بحيرا الراهب - وهو رجل انتهي إليه علم المسيحية في عصره (43) - وكذلك مقولات نسطورا الراهب ، هذه المقولات التي اعترفت صراحة بنبوة محمد الموعودة وكانت بمثابة البشارة . وخلاصة رأي وات حول وقائع هذا المدى الزمني الذي يبلغ ربع قرن بين الميلاد والزواج هو أن القارئ يجد نفسه إزاء أرضية مهزوزة (44).

ولا يخفي على أحد الآثار المترتبة على إنكار لقاء النبي صلى الله عليه وسلم قبل النبوة بهذين الراهبين وتبشيرهما له بالنبوة وحادث شق صدره . ولقد أدي إنكار هذه الإرهاصات إلى أن تنكر دراسات وات وبروكلمان نبوة محمد ذاتها .

ثالثاً : لم تعترف دراسات وات وبروكلمان بكون الوحي للنبي (ص) من عند الله تعالي إذ عزا وات مصدر الوحي المحمدي إلى اللاوعي الجماعي *"Collective unconscious" الذي هو مصدر كل وحي ديني (45) وعزا النبوة إلى التخيل الخلاق Creative Imagination " الذي كان موجوداً عند النبي (ص) كما يرى . حيث يذكر بأنه - أي محمد - رجل تجسدت فيه التخيلية الخلاقة حتى الأعماق ويستطيع ابتكار أفكار لها الصلة بعمق قضية الوجود البشري " He is aman in whom creative imagination worked at deep levels and produced ideas relevant to central questions of humanexistence" (46).

وأما بروكلمان فقد وصل به الإسفاف إلى أن اعتبر الوحي أوهام تخيلها النبي(47) . وإنكار الوحي أدى إلى التشكيك في أن يكون القرآن كلام الله تعالي . وبمعني آخر فإن دراسات وات وبروكلمان اعتبرت أن القرآن من تأليف محمد ولإمكان تأليفه للقرآن فقد أنكر وات أن يكون النبي أمياً إذ كان الكثير من المكيين يقرؤون ويكتبون لذلك يفترض أن تاجراً ناجحاً كمحمد لأبد أن يكون قد عرف شيئاً من هذه الفنون " It is Know that many Meccans were able to read and write , and there is therefore presumption that an efficient mercha nt as Muhammad was know Somethi ng of this art".

وحسب دراسات وات فإن النبي قبل أن تأتيه النبوة كان من مثقفي عصره "enlightned contemporaires" وكانت له اتصالات بالمثقفين أمثال ورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث وصهيب الرومي وباعتبار النبي صلى الله عليه وسلم من المثقفين فإن هذه الثقافة الرفيعة قد أتاحت له إنتاج هذا العمل الضخم المسمي الإسلام (48) .

رابعاً : إن دراسات وات وبروكلمان عملت جاهدة على إبراز التأثيرات المسيحية واليهودية بل وحتى البابلية والمجوسية والمانوية على النبي صلى الله عليه وسلم ودعوته بحيث سعت هذه الدراسات جاهدة إلى إفراغ الإسلام من ذاتيته وإحالتها إلى مصادر خارجية . ومنذ البدء - كما تزعم هذه الدراسات - وقع النبي (ص) الله عليه وسلم تحت تأثير الجالية الكتابية بمكة. وقد أكدت هذه الدراسات على الدور الخطير الذي لعبه ورقة بن نوفل في التأثير على النبي (ص) وعلي مجموع التعاليم التي جاء بها " That Muhammad had frequent communication with

Waraqah at on earlier date,and learnt much of ageneral character . later Islamic conception may have been largely moudled by Waraqah's ideas"

ولقد أوضحت دراسات وات بأن ورقة عمل على إيهام النبي(ص) بالنبوة وبأنه مؤسس مشروع سياسي ذي طابع ديني سيؤدي إلى جمع العرب في دولة عربية كبري (49).

وفي سبيل تأكيد الهوية العربية لهذا المشروع فقد أنكرت هذه الدراسات عالمية الرسالة الإسلامية واعتبرتها رسالة إقليمية خاصة بالعرب دون غيرهم . وكانت البداية لنفي عالمية الرسالة الإسلامية تتمثل في إنكار لقاء النبي صلى الله عليه وسلم ببحيرا ونسطورا . وانتهت إلى إنكار رسائل النبي (ص) إلى الملوك والرؤساء النصارى . وعلي حسب ما ترى هذه الدراسات - وخاصة دراسات وات - فإنه حتى لو قام النبي(ص) بمكاتبة الملوك النصارى فإن رسائله لا تعدو أن تكون سوى رسائل سياسية تهدف إلى عقد محالفات سياسية وليست لأجل الدعوة إلى الإسلام ، فنقرأ مثلاً لبروكلمان " هدف محمد النهائي كان السيطرة على بلاد العرب " وقد بعث محمد إلى العرب قبل كل شئ وليس من الميسور أن نقرر على وجه الدقة إذا كان النبي صلى الله عليه وسلم استشعر أنه مدعو لمثل هذه الرسالة العالمية وفي أي فترة من فترات حياته (50) مع العلم بأنه من المعروف أن الأصول الفكرية لعالمية الدعوة الإسلامية وجدت منذ العهد المكي .

أما وات فإنه يذكر " غير أن قول بعض المصادر وهي ليست أقدم المصادر أنه نظر للإسلام على أنه دين شامل وعام ، وأنه دعا الإمبراطور البيزنطي والفارسي وغيرهما من الملوك للدخول في الإسلام هو قول خاطئ، إذ أنه من غير المعقول أن يوجه رجل سياسي حكيم كمحمد مثل هذا النداء المحدد. وندرك أن تقارير السفراء عند مختلف الحكام مملوءة بالتناقضات. ومن غير المعقول أن يستجيب إمبراطور الروم ونجاشي الحبشة لمثل هذه الدعوة... وإذا افترضنا أن الأشخاص المذكورين حملوا فعلاً رسائل وبأن محمد ألمح فيها لمعتقداته الدينية فإن المشكلة الحقيقية كانت سياسية ، ربما اقترح عقد محالفة حياد وربما أراد منع المكيين من الحصول على مساعدة خارجية لأنه يستبعد من محمد دعوة هؤلاء الحكام الأقوياء للدخول في الإسلام .. إن نص الرسائل غير صحيح(51) . ذلك لأن النبي (ص) لم يكن في عام 628م في وضع قوي يمكنه من طلب الإسلام أو الخروج عن دائرة نفوذ المسلمين.

" Muhammad was surely not in enough position in April 628 to make ademand for acceptance of Islam or withdrawal from sphere of Muslim influence" (52).

خامساً: لقد وصفت هذه الدراسات دعوة التوحيد بالغموض "Vague Monotheism" وأن هذا التوحيد نشأ تدريجياً باشتداد النقد لعبادة الأصنام ، بل إن النقد لم يوجه إلا للأصنام الكائنة خارج مكة (53) . وفي سبيل التأكيد على أن النبي (ص) اعترف بالآلهة المكية شفعاء عند الله وأنهن بنات الله فقد تحدث وات وبروكلمان عن الآيات الشيطانية "The

Satanic Verses" إذ ذكرا بأن النبي حينما تلي سورة النجم اعترف باللات والعزى ومناة حيث تلي " تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجي " ولقد أفرد وات في كتابه محمد بمكة الصفحات من (101-109) للحديث عن الآيات الشيطانية حيث يقول "تلي محمد الآيات الشيطانية إذ ليس من المتصور أن تكون القصة من تأليف المسلمين أو غير المسلمين وإن انزعاج محمد حينما علم بأن الآيات الشيطانية ليست جزءاً من القرآن يدل على أنه تلاها . وإن عبادة محمد بمكة لا تختلف عن عبادة العرب في نخلة والطائف . ولقد كان توحيد محمد غامضاً ولا شك أنه يعد اللات والعزى ومناة كائنات سماوية أقل من الله . ولهذا فمن غير المستبعد أن يكون محمد قد تلي الآيات الشيطانية . ولقد علق أبو أحيحة سعيد بن العاص على الواقعة قائلاً :

At last Ibn Abi Kabsha Has Spoken good of our Goddesses". "

كما أن محمد عاني من إغراء التسوية طويلاً (54) . ولقد كان القرآن - في نظر وات - يتحايل على المكيين خشية الارتطام بهم (55) .

ولأن في إمكان النبي أن يساوم على حساب العقيدة - كما ترى هذه الدراسات - فإن دراسات وات وبروكلمان قللت من شأن الابتلاءات التي تعرض لها المسلمون في مكة ، وعزت الهجرة إلى الحبشة للاختلافات بين المسلمين بسبب التوجهات السياسية المتنامية للنبي (ص) (56) . وهذا يعني أن الوفاق بين المسلمين والمكيين كان موجوداً وذلك لوجود التوافق العقدي . وحتى محاولة الاغتيال التي تعرض لها النبي (ص) أثناء هجرته إلى المدينة نفي وات أن يكون الملأ القرشي قد فكر في اغتيال محمد (57). رغم أن هذه الواقعة ثابتة في القرآن ، لكن القرآن ذاته في نظر وات متحيز (58)، وبالتالي فإنه لا يعتبر مصدراً موثوقاً للاعتماد عليه في دراسة السيرة النبوية .

سادساً : لقد ركزت دراسات وات وبروكلمان على الجانب السياسي في ممارسات النبي (ص). كما عملت على تهميش إصلاحات النبي الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وإبراز ضآلتها وصبغها بصبغة الزمان والمكان الذي وجد فيه النبي (ص) (59). بمعني أنها غير ملزمة لغير الخاضعين لدولة المدينة ولا الذين يأتون من بعده عليه السلام .

سابعاً : لم تحاول دراسات وات وبروكلمان إخفاء العطف على الجماعات المعارضة للنبي (ص) ودعوته من الوثنيين واليهود والنصارى والمنافقين وهو عطف ظاهر في هذه الدراسات بحيث أن هذه الدراسات أوضحت بصورة جلية بأن المعارضة كانت ضحية لتعصب وإرهاب الدولة النبوية.

ووصفت هذه الدراسات النبي (ص) بالغدر وبأنه لا يقيم وزناً للمقدس وبالتالي فقد كان على المعارضة أن تظل دوماً حذرة وهي تتعامل مع المسلمين (60). والمدهش حقاً أن تتلاقى توجهات المستشرقين مع توجهات المنافقين إذ أن توجهات الفريقين علمانية بحتة بحيث جاء التعامل مع النبي (ص) كسياسي لا نبي صاحب دعوة إلهية . وعلي هذا الأساس نظر وات لمعارضة المنافقين باعتبارها معارضة إسلامية فالمنافقون "مسلمون يعارضون بعض الجوانب السياسية للنبي (ص) "(61). وفي نظر وات فإن زعيم المنافقين ابن أبي قد أسلم قبل العقبة (62). بل إن وات الحق ابن أبي بزمرة المبايعين تحت الشجرة في صلح الحديبية أي من الذين رضي الله عنهم (63).

ثامناً : لقد فسرت دراسات وات وبروكلمان غزوات النبي صلى الله عليه وسلم وبعوثه تفسيراً مادياً بحتاً مع التغييب المطلق لطابعها الدعوي (64). وإذا كان العامل المادي وارداً في التفسير الإسلامي إلا أنه ليس عاملاً أساسياً بحيث تتحول الغزوات من " فقه الدعوة " إلى " فقه الغنيمة " وبحيث تكون مصالح الجماعة الذاتية مقدمة على مصلحة الدين . وهذه الدراسات لم تكتف بتفسير الغزوات تفسيراً مادياً فحسب وإنما فسرت ظهور الإسلام ذاته تفسيراً مادياً (65).

تاسعاً : لم تعترف دراسات وات باعتناق القبائل العربية للإسلام سواء كانت وثنية أم مسيحية عدا القبائل حول مكة والمدينة ويرى وات أنه قد بولغ كثيراً "Greatly exaggerated" في اتساع انتشار الإسلام (66) ، وعلي هذا الأساس فإن وات أعتبر واقعة الوفود " Deputation" مجرد اختراعات وأكاذيب لتمجيد النبي صلى الله عليه وسلم والتقليل من نجاح أبو بكر رضي الله عنه. "to magnify the achievement of Muhammad and perhaps67(to minimize that of Abu Bakr" (

وأما الردة عقب وفاة النبي صلى الله عليه فإن وات - الذي لم يعترف باعتناق القبائل العربية للإسلام - نفي أن تكون هناك ردة بل عدم ولاء سياسي من جانب القبائل لدولة المدينة "There was no apostasy , but most political disloyalty"(68)

عاشراً: **لقد شككت دراسات وات وبروكلمان في الكثير من الروايات الإسلامية في حين أن وات وبروكلمان اعتمدا على الروايات الغربية في مجال السيرة (69) مما يدل على تحيز الدراسات الاستشراقية وعلى أنها سلسلة ممتدة من الأكاذيب والافتراءات .**

الخاتمـــة

تلك أهداف ووسائل الاستشراق وهذه هي بعض مضامين الخطاب الاستشراقي المعاصر ، هذا الخطاب الذي يوصف بالحياد والتجرد العلمي ممثلاً في مونتغمري وات وكارل بروكلمان ، ولعله قد اتضح لنا من خلال السرد أي حياد وأي تجرد هذا ؟ ! ولقد قدمنا مضامين هذا الخطاب دون أن ندخل في جدل طويل مع مقولاته إذ أفردنا لذلك رسالة علمية قد يجد فيها القارئ هذا الجدال . وإنما قدمنا المضامين دون الرد عليها لأننا نهدف إلى التبصير بأخطار مقولات الدراسات الاستشراقية .

إن ما ينبغي قوله في هذه الخاتمة يتلخص في :

أولاً : إن تكوّن مثل هذا البناء الاسشتراقي جاء في الأساس معبراً عن موقف أيديولوجي اتخذ من الإسلام عدواً لدوداً للحضارة الغربية المسيحية . لذلك فإن المستشرق حينما يكتب عن الإسلام فإنه لا يكتب ليثبت الحقيقة وإنما يكتب لإثبات أشياء آمن بها سلفاً .

ثانياً : إن المحصلة النهائية للدراسات الاستشراقية في مجال السيرة النبوية ضعيفة وخاطئة لأن المنهجية التي طبقت في دراستها مغايرة تمام المغايرة لروحها ونسيجها العام وبالتالي فإن الاعتماد عليها علمياً معناه بناء أجيال مشوهة الفكر.

ثالثاً : إن الدراسات الاستشراقية عملت على تشكيل عقل الآخر وحددت موقفه تجاه الإسلام وهي تعمل الآن على تشكيل العقل المسلم من خلال فرض آلياتها وتوطين الاستشراق في العالم الإسلامي .

رابعاً : إن علماء المسلمين قديماً وحديثاً يتحملون قدراً كبيراً من المسئولية في بروز الانحراف الاستشراقي واستمراريته إذ أن الدعاة قديماً عجزوا عن إيصال الدعوة للمجتمع الغربي ذلك لأنهم وضعوا أنفسهم في أبراج عاجية بدلاً من نزولهم لرجل الشارع البسيط ومحاولة استيعاب لغته ونفسيته ومن ثم ابتكار آلية للدعوة وسط الناس . ولكن الذي حدث كان العكس إذ كان المطلوب من رجل الشارع البسيط في الغرب أن يرتقي بمستواه ليتعلم لغة الغالب (المسلم) ودينه ولأن الغربي كان جاهلاً وبسيطاً فقد عجز عن تعلم اللغة ومن ثم الدخول في الإسلام فتلقفه الذين استطاعوا تعلم اللغة العربية من بني جلدته (المستشرقين) ليقدموا له فهماً مغلوطاً عن الإسلام ساهم في كراهيته اللامتناهية للإسلام ومعتنقيه ، تظهر هذه الكراهية اللامتناهية في حملات الحروب الصليبية التي وصل فيها الهياج الغربي ضد الإسلام حداً دفع أطفال أوربا للخروج في حملة نحو الشرق الإسلامي " حملة الأطفال " ، وتبرز هذه الكراهية في حملات الاسترداد المسيحي ضد المسلمين في أسبانيا والمطلوب - إذاً - تقويم تاريخي لتجربة السلف الدعوية في العالم الغربي تداركاً للأخطاء وتصويباً للمسيرة . وبدون هذا التقويم للتجربة فسوف تتكرر الأخطاء الإسلامية في الساحة الغربية لا سيما أن مقولة العصور الوسطي عن الإسلام The great enemy قد بدأت تطل برأسها من جديد في ظل النظام الدولي الجديد وانهيار المعسكر الشرقي.

خامساً : إن المؤسسات الإسلامية لا سيما الجامعات الإسلامية عاجزة عن الوصول لعقل الآخر وبالتالي تعجز عن تشكيله وفق النسق الإسلامي رغم أن هذا يقع على عاتقها باعتبارها مؤسسات دعوة ، وهذه الدعوة من ابرز خصائصها أنها عالمية. وهذا العجز مرده إلى عجز مناهجها التعليمية وعجزها عن تمثل وهضم لغة الآخر وثقافته . ولقد وصل الحال ببعض الجامعات الإسلامية حداً دفعها إلى الاستهانة باللغات الأجنبية وكل هذا خصم من رصيد عالمية الدعوة وخلودها ، والمطلوب - إذاً - أن تعالج هذه الجامعات مناهجها العاجزة في التعليم وان يكون من شروط نجاح طلاب الدعوة إتقان لغة أجنبية حتى يكون دعاتها دعاة عالميون لا دعاة محليين لا هم لهم سوى صب اللعنات على الغرب الكافر وأهله..إن الآخر في الإمكان أن يتقبل الإسلام إذا وجد من يعطيه اليقين والمعرفة الصحيحة بشرط أن يكون الداعية المسلم مدركاً لثقافة الآخر وبيئته وعالماً بلغته . ورحم الله رجلاً عرف زمانه واستقامت طريقته .

سادساً : إن بعض آراء المستشرقين مؤسسّة على روايات إسلامية وردت في دراسات الواقدي وابن سعد والطبري وحتى البيهقي وهي التي نسميها بالروايات الشاذة أو الإسرائيليات وهذه الروايات أشد خطراً على المسلمين من دراسات المستشرقين لأنها في كتب موثوق بها . كما أن للفلاسفة المسلمين آراءهم حول النبوة والمعجزة والعصمة وهذه الآراء تعضد آراء المستشرقين على الرغم من أن هذه وتلك تتصادم مع المنقول والمعقول فماذا نحن فاعلون بهذه الآراء المنسوبة لكتّاب السيرة من المسلمين وفيهم المحدث والمفسر غير الجرح والتعديل ؟ وقد جرحنا الواقدي بما فيه الكفاية غير أننا ما زلنا نقرأ له رواياته في قصة الغرانيق وفي حضور ابن سلول لبيعة الرضوان .

وقد يقول قائل : لقد كتب المعاصرون السيرة النبوية الصحيحة باعتماد منهج المحدثين وهذا جهد محمود غير أن هذه الكتب غير متداولة تداولاً يحمي المسلمين من الوقوع في براثن الشك والحيرة .

الهوامش

1- د. محمود حمدي زقزوق : الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ص18 . د. عبد العظيم محمود الديب : المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي، ص 39 . وأنظر السيد محمد الشاهد : الاستشراق ومنهجية النقد عند المسلمين المعاصرين، مجلة الاجتهاد ، عدد 22 ، 1994 ، ص 195 .

2- السيد محمد الشاهد : الاستشراق ومنهجية النقد عند المسلمين المعاصرين، مجلة الاجتهاد عدد 22، ص 196 - 199 . ولمعرفة مادة (Orient) ومشتقاتها في اللغات الأوربية أنظر ص 197 ، وأنظر إلى معاجم : Webster ,Laurousse .

3- الندوة العالمية للشباب الإسلامي : الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، ص 33 . زقزوق، المصدر السابق، ص 18 .

4- الديب : المصدر السابق ، المقدمة : عمر عبيد حسنة ، ص 15 .

5- إدوارد سعيد : الاستشراق ، ترجمة كمال أبو ديب ، ص 80. عبد الكريم على باز : افتراءات فيليب حتى وكارل بروكلمان على التاريخ الإسلامي، ص 17 . الموسوعة الميسرة ص 33.

6- Walzer. L. Eveil DE la philosophe lsmique p. 41

نقلاً عن مصطفي نصر المسلاتي : الاستشراق السياسي في النصف الأول من القرن العشرين ، ص 5 .

7- نجيب العقيقي : المستشرقون، ج 3، ص 1156 - 1157 .

8- الموسوعة الميسرة، ص 33 . د. محمد ياسين صديقي : الهجمات المغرضة على التاريخ الإسلامي ص 14 . سعيد عبد الفتاح عاشور : أوربا العصور الوسطي، ج1، ص 661 .

9- زقزوق : مصدر سابق، ص 24 . إميل درمنغم : حياة محمد، ترجمة عادل زعتير، ص141

Watt: Muhammad at Medina , p . 324 .

10- أنظر محمد إبراهيم الفيومي : الاستشراق رسالة استعمار، ص 193 .

11- زقزوق : مصدر سابق، ص 30 .

12- الديب : مصدر سابق ص 38 . الباز مصدر سابق : ص 18 .

13- السيد عبد العزيز سالم : في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، ص 9 - 12 .

14- عاشور : مصدر سابق ج1 ، ص 649 - 657 .

15- عاشور : ج1 ص 529 - 569 . سالم : مصدر سابق ، 18 - 26 .

16- صديقي مصدر سابق ، ص 14 .

17- اتيين دينيه " ناصر الدين " وسليمان بن إبراهيم : محمد رسول الله، ترجمة د. عبد الحليم محمود ود. محمد عبد الحليم ، ص 61 . صديقي : مصدر سابق، ص 17 .

18- المسلاتي : مصدر سابق ، ص 14 .

19- إبراهيم اللبان : المستشرقون والإسلام ، ملحق بمجلة الأزهر، أيريل 1970م، ص 34 عن زقزوق : مصدر سابق، ص 72 .

-20

* أمثال كارل هينريش بيكر K. Heinrich Becker (ت 1933م) مؤسس مجلة الإسلام الألمانية : قام بدراسات تخدم الأهداف الاستعمارية الألمانية في أفريقيا . أما بارتولد (Barthold) (ت 1930م) مؤسس مجلة الإسلام الروسية فقد كلفته الحكومة الروسية بالقيام ببحوث تخدم مصالحها في آسيا الوسطي . وكذلك عالم الإسلاميات الهولندي سنوك هورنجرنيه الذي تولي مناصب في السلطة الاستعمارية في أندونسيا) . أنظر زقزوق : مصدر سابق، ص 44 - 46. ولمزيد من التفاصيل حول هذه النماذج من المستشرقين أنظر، سالم حميش : الاستشراق والعقد الاستعماري، مجلة الاجتهاد، عدد 23 ، بيروت 1994م ، ص 200 - 202 -، 207 - 210 .

21 - إدوارد سعيد : الاستشراق ، ص 146 ، 221 . زقزوق : الاستشراق والخلفية الفكرية ، ص 46. الباز : مصدر سابق، ص 19 . العقيقي : المستشرقون ج3، ص 1149 .

22 - اللبان : مصدر سابق، ص 18 عن زقزوق، مصدر سابق ص 47 . إدوارد سعيد : مصدر سابق، ص 224 .

23- إدوارد سعيد : ص 68 ، 70 .

24- مالك بن نبي : إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، ص 11 - 12 .

25- أنظر محمد إبراهيم الفيومي : الاستشراق رسالة استعمارية، ص 207 - 208.

26- خليل أحمد خليل : الاستشراق مشكلة معرفة أم مشكلة تعارف بالآخر، مجلة الإنماء العربي ، عدد 31 ، " الاستشراق " نقلاً عن الفيومي، ص 208 .

27- دوجا : تاريخ المستشرقين في أوربا من القرن الثاني عشر إلى القرن التاسع عشر بالفرنسية . ط . ميزونوف، باريس 1868 ، ج1 ، ص 11 نقلاً عن سالم حميش الاستشراق والعقد الاستعماري ، مجلة الاجتهاد ، 23 ، السنة السادسة، بيروت 1994م، ص 198 - 199 .

28- جاك بيرك : أبعاد الاستشراق المعاصر، مجلة "Ibla " عدد x x ، 1957 . ص 220 - 221 نقلاً عن المرجع السابق، ص 199 .

29- السيد محمد الشاهد : الاستشراق ومنهجية النقد عند المسلمين المعاصرين، مجلة الاجتهاد عدد 22 ، السنة السادسة ، شتاء 1994م ، ص 191 - 192.

30- الموسوعة الميسرة : ص 34 - 35 .

31- غسان سلامة : عصب الاستشراق ، مجلة المستقبل ، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ، 1981 ، نقلاً عن المسلاتي : مصدر سابق ، ص 73 .

32- لمعرفة هذه النماذج أنظر، زقزوق : مصدر سابق، ص 31 - 35 .

33- الباز : مصدر سابق، ص 19 . زقزوق مصدر سابق ص 74 .

34- المسلاتي : ص 267 . الباز ص 24 - 25 .

35- الفيومي : ص 153 .

(36) مجموعة من المؤلفين مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية ج1 بحث عماد الدين خليل : الاستشراق والسيرة ص 116

(37) د. عبد الحليم محمود : أوربا والإسلام ، ص96

(38) د. جعفر شيخ إدريس : مناهج المستشرقين ، مصدر سابق ، ص236

(39) Watt . Muhammad Mecca, P.UU

(40) I bid , PP. 101 - 109

(41) Watt : Muhammad at Medina , pp 324 - 325. ..

(42) Watt : Muhammad at Mecca, p36 Brockelman : history of the Islamic Peoples ,p. 13

(43) ابن سيد الناس : عيون الأثر ، م1، ص61 .

(44) Muhammad at Mecca , pp 34 - 38 .

* اللاوعي الجماعي : لخص وات رأي يونج " " Junge وهو أن ما ينبثق من اللاوعي إلى الوعي في رؤى الأفراد المنامية وأحلام اليقظة وكذلك في الأساطير الدينية لمجتمع كامل تأتي من اللبيدو أو طاقة الحياة وهو ينبوع المناشط في كل الناس . في الشخص الواحد يكون اللبيدو في أحد أجزائه شيئاً خاصاً وفي الجزء الآخر شيئاً مشتركاً بينه وبين أفراد جماعته وهو اللاوعي المشترك وتعزى له الأساطير الدينية ولتطبيق النظرية على الوحي المحمدي يقول وات إن هذا يعني أن كلمات الوحي كانت لها صلة بمحمد قبل أن يصير واعياً بها .

انظر : Watt : Islamic Revelation p. 109.Also see : Muhammad Prohpet and Statesman p. 238.

ولقد تحدث فلاسفة المسلمين عن هذه الفكرة، انظر، عرض فخر الدين الرازي لهذه الفكرة عند ابن سينا في المطالب العالية من العلم الإلهي ، الجزء الثامن في النبوات وما يتعلق بها ص 127-137.

and Statesman , P. 238. Also See: Islamic Revlaion. P. 109. Muhammad Prophet -45

Statesman, P 240 Also See: PP. Muhammad Prophet and 240-237-46

History of the Islamic People, PP., 14-15 -47

وأنظر أيضاً كتابه : تاريخ الأدب العربي، ترجمة النجار ، ج 1، ص 137

.-48Muhammad Prophet and Statesman pp. 39-40 .Muhammad at Mecca ,p. 104.

49- Muhammad at Medina , PP .315 . 316 .Muhammad at Mecca pp.39 ,51-52

Muhammad Prophet and Statesman . pp-39-46. History of the Islamic People pp. 14-17.

50- History of the Islamic peoples, pp. 36-37 .

51- Muhammad at Medina ,pp. 41-42, 235.

52- Ibid ,p. 109 .

53- Muhammad at Mecca , pp. 63,134. Muhammad at Medina ,p.309 .History of the Islamic Peoples ,p.37-

54- History of the Islamic People ,p. 14. Muhammad at Mecca pp103,108 . for more detail see pp. 101 -109 ..

ولمعرفة التفاصيل أنظر : عبد الله محمد الأمين : الاستشراق في السيرة النبوية ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، الرسائل الجامعية، أمريكا . 1997م

55- Muhammad at Mecca ,134.

56- Ibid ,pp. 97,115, 118- 119 .

57- Muhammad at Mecca ,p. 150.

58- Ibid ,p . X V .

59- Muhammad at Medina ,pp. 228,238-240- 249

للتوسع أنظر : عبد الله محمد الأمين : الاستشراق في السيرة ، الفصل الثالث : معالم دولة المدينة .

.-60History of the Islamic People , pp. .27-24

Muhammad at Medina , pp. . 15,20,211,227

-61Muhammad at Medina , p. 188.Also see pp. 180-189

-62 Ibid , p. 175.

-63 Ibid , pp.186-187.

-64History of the Islamic Peoples ,pp. 23, 28,34. Muhammad at Medina ,pp. 44, 57.105-106,144--146,218,220

-65Muhammad at Mecca , pp. Xi, 20, Muhammad at Medina , pp. .261 ,176

-66Muhammad Medina ,pp. 80, 85, 90, 108-109, 114-116 .

-67Ibid p. 80.

-68Loc -cit.

-69Muhammad at Medina , pp . .146,280,283 ,87-7,9,13,22,54,82,86-6History of the Islamic People ,p. Xii.

قائمـة المـراجـع

المراجع العربية

1- إدوارد سعيد : الاستشراق ، ترجمة كمال أبو ديب ، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت 1981م.
2- الباز : عبد الكريم على : افتراءات فيليب حتى وكارل بروكلمان على التاريخ الإسلامي، الطبعة الأولي، تهامة، جدة 1983 .
3- بروكلمان : كارل : تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة نبيه فارس ومنير البعلبكي الطبعة الرابعة ، دار العلم للملايين ، بيروت 1965م .
4- بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، الجزء الأول ، ترجمة عبد الحليم النجار، دار المعارف ، مصر (بدون تاريخ) .
5- درمنغم : اميل : حياة محمد ، ترجمة عادل زعيتر ، الطبعة الثانية ، دار إحياء الكتب 1949م .
6- الديب : عبد العظيم : دكتور : المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي، سلسلة كتاب الأمة ، الطبعة الأولى ، مطابع مؤسسة الخليج ، رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية ، قطر ربيع الثاني 1411هـ .
7- دينيه : اتيين (ناصر الدين) وسليمان بن إبراهيم : محمد رسول الله ، ترجمة د. عبد الحليم محمود ومحمد عبد الحليم ، دار المعارف ، مصر 1966م.
8- الرازي : فخر الدين (ت 606هـ) : المطالب العالية من العلم الإلهي ، م (8-9) ج8 ، تحقيق د. أحمد السقا حجازي ، الطبعة الأولى ، دار الكتاب العربي ، بيروت 1987م .
9- زقزوق : محمود حمدي : دكتور : الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري ، سلسلة كتاب الأمة ، الطبعة الثانية ، رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية ، قطر ، صفر الخير 1404م .
10- سالم : السيد عبد العزيز : دكتور : تاريخ الدولة العربية ، مؤسسة الثقافة الجامعية ، الإسكندرية (بدون تاريخ) .
11- ابن سيد الناس : محمد بن عبد الله بن يحي (671-734هـ) : عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير ، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت 1986م.
12- صديقي : محمد ياسين : دكتور : الهجمات المغرضة على التاريخ الإسلامي ، الطبعة الأولى ، هجر للطباعة والنشر ، القاهرة 1988م .
13- عاشور : سعيد عبد الفتاح : دكتور : أوربا العصور الوسطي ، الجزء الأول ، الطبعة التاسعة ، مكتبة ، الانجلو المصرية ، القاهرة 1983م .
14- العقيقي : نجيب : المستشرقون (3 أجزاء) ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، مصر 1964 ، 1965 ، 1965م (على التوالي) .
15- الفيومي : محمد إبراهيم : الاستشراق رسالة استعمار ، دار الفكر العربي القاهرة 1993م.
16- مجموعة من المؤلفين : مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية الجزء الأول، مكتب التربية لدول الخليج ، الرياض 1985.
17- محمود ، عبد الحليم : دكتور : أوربا والإسلام ، المكتبة العصرية ، بيروت ، (بدون تاريخ)
18- ابن نبي : مالك : إنتاج المستشرقين وأثره على الفكر الإسلامي الحديث ، مطبعة دار البيان ، مكتبة عمار ، القاهرة 1970م .
19- النعيم : عبد الله محمد الأمين : الاستشراق في السيرة النبوية ، دراسة تاريخية لآراء وات، بروكلمان ، فلهازون مقارنة بالرؤية الإسلامية ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، سلسلة الرسائل الجامعية (21) أمريكا 1997م.

20- وات : وليم مونتغمري : محمد بمكة ، ومحمد بالمدينة ، ترجمة شعبان بركات ، منشورات المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت (بدون تاريخ) .

الموسوعات

21- غربال : محمد شفيق : الموسوعة العربية الميسرة ، دار القلم ، القاهرة 1965.

22- الندوة العالمية للشباب الإسلامي : الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ، الطبعة الثانية ، الرياض 1989م .

الدوريات

مجلة الاجتهاد ، الأعداد 22-23 ، دار الاجتهاد ، بيروت 1994

الأجنبية :

23- -Brockelman , Carl : History of the Islamic Peoples, london 1964

24- Watt, W.M., Muhammad at Mecca ,Five edition , Oxford 1972

25- Watt, W.M., Muhammad at Medina , , Oxford at the Clarendon Press , london 1966 .

26- Watt : Muhammad Prophet and Statesman, Oxford University Press 1969

27- Watt: Islamic Revelation in the Modern World , Edinburg 1969.